

الأدب الإصلاحي في الجزائر
"دراسة تحليلية لأدب حوحو"
(الجزء الثاني)

د/ محمد خان

قسم الأدب العربي

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

جامعة محمد خيضر بسكرة

الملخص:

Résumé :

Nous avons présenté dans la première partie du présent article la vie du grand écrivain audacieux Ahmed Ridha Houhou durant son immigration et après son retour en Algérie. Ainsi que son appel réformiste dans les domaines de la politique, la culture ; le social.... Dans la présente partie nous nous penchons sur sa créativité littéraire notamment en matière du roman et la nouvelle, pour terminer en fin par les caractéristiques de son style littéraire.

كنا قد تحدثنا في الجزء الأول من المقال عن هجرة حوحو وعودته إلى أرض الوطن، ودعوته الإصلاحية في مجال الثقافة والسياسة والاجتماع وفي هذا الجزء نتحدث عن حوحو الأديب، ونتكلم عن إبداعه في مجال المقالة القصصية، والقصة الصغيرة ثم نختم بخصائص أسلوبه.

حوحو أدبيا:

لم يظهر للحرف العربي لون في الجزائر إلا في ثلاثينات القرن العشرين على يد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كانت تهدف في المقام الأول إلى إحياء المقومات الأصلية للشخصية الجزائرية، ونشر التعليم العربي في هذه الديار التي هيمنت عليها المدرسة الفرنسية ومقاومة الانسلاخ والاندماج والتجنيس وبذلك ركزت على الفنون القولية المعروفة في التراث كالشعر، والخطابة، والمقالة⁽¹⁰⁸⁾، لخدمة أهداف الجمعية مباشرة، ومخاطبة الشعب بما يسهل فهمه ويستجيب لذوقه، فيحصل الإبلاغ والتواصل بين النخبة والجمهير.

لقد كان الأدباء عموما يسيرون في ركاب الجمعية، وينادون بدعوتها، ويدافعون على مبادئها ويناونون أعداءها. هادفين إلى خدمة الإسلام والعربية والجزائر، وظل هذا المثلث شعار الجمعية وأتباعها إلى قيام ثورة التحرير المباركة حيث انصهر كل الوطنيين في بوتقة جبهة التحرير الوطني من أجل الاستقلال، وقيام الدولة الجزائرية المعاصرة.

ومن أبرز خصائص الأدب الجزائري-قبل الثورة-المحافظة على الموروث الثقافي والحنين إلى أمجاد الماضي، وبعث الأدب القديم في هذا العصر، ولا يستثنى من التوجه إلا فئة قليلة، في مقدمتهم أحمد رضا حوحو الذي جدد بعض التجديد⁽¹⁰⁹⁾ ولكنه لم يتجاوز دائرة كتاب الإصلاح، الذين يكتبون المقالات الصحفية والأدبية لسرعتها تأدية الغرض، وبلوغ الهدف الذي يبتغيه أصحاب هذه المقالات.

3-1- المقالة القصصية، والصورة:

المقال القصصي عبارة عن مقال إصلاحي في مضمونه، ووظيفته. هدفه الدعوة الإصلاحية وشرحها بأسلوب قصصي جذاب⁽¹¹⁰⁾. وهذا النوع من الأشكال الأدبية يبدأ عادة بمقدمة وعظية مع سرد للحوادث، وتركيز على الفكرة، وإبراز الهدف من كتابته⁽¹¹¹⁾. وإذا انطلقنا من هذا التعريف فإننا نجد حوحو قد كتب هذا النوع من الأشكال الأدبية مثل (الشخصيات المترجلة وفقائع الأدب ومع حمار الحكيم...).

إنه يبدأ مقاله (الشخصيات المترجلة) بتعريف معجمي لمعنى (ارتجل)، ويسقطه على الشخصية المترجلة التي طبخت على عجل في مرجل الأنانية والدجل. وهدفه تبيان الزعماء الحقيقيين من المزيفين حتى يكون الشعب على بينة من هؤلاء الأعداء⁽¹¹²⁾. وكتابه (مع حمار الحكيم) يشبه طريقة المقامة في الأدب العربي، فالبطلان لا يتغيران في

كل جلسة، وهو "مجموعة من المقالات النقدية في الأدب والسياسة والاجتماع، أجراها كاتبها، وأجاب بها على لسان حمار" فيلسوف" ينظر إلى الناس بمنظار واقعي"⁽¹¹³⁾ عرفت هذه الطريقة في كثير من الآداب، إذا يلجأ إليها الكاتب عندما يشتد الظلم، والقهر فيخشي المفكرون على أنفسهم إذا صدعوا بأرائهم. كذلك يعد بعض ما كتبه حوحو من الصور القصصية التي تكون فيها الشخصية، نموذجية ثابتة، لا تتطور ولا تتفاعل مع الحدث مما يفقدها التركيز، ويشيع فيها الاستطراد، من هذه الصور القصصية مثلاً (العصامي) الذي يشق طريقه بإرادة فولاذية، ويحقق ما يريده، عبد الباقي العصامي شخصية لا تتطور، مسطحة دائماً، تحقق الهدف تلو الهدف. فهي تسجيل للواقع خال من كل فن.

ولقد كانت في ذلك الوقت شغل الناس وحديثهم اليومي⁽¹¹⁵⁾. فقد صار القراء معجبين بما يكتبه حوحو من مقالات (مع حمار الحكيم) التي كان ينشرها في البصائر، ويتساءلون عن انقطاعها المفاجئ. لأنها تعالج قضايا هامة يعيشها الناس بأسلوب طريف تنجذب إليه نفس القارئ انجذاباً⁽¹¹⁶⁾.

وقد وفق حوحو إلى حد كبير في تصوير حياة المجتمع بمختلف قضاياها الهامة في عصره، واستطاع أن يكشف عيوبها ومساوئها، وينقدها بأسلوب ساخر، وجراًة قوية، وما هذا إلا وجه من وجوه إبداعه، وقد نوه الدارسون للأدب الجزائري بإبداعه في مجال القصة الفنية، وجعلوه من روادها في الوطن "وهي الوجه المميز والمعروف به في تاريخ الأدب الجزائري الحديث." ⁽¹¹⁷⁾.

3-2- القصة القصيرة (الفنية):

يدرك كل دارس لأثار حوحو أن بين ثناياها موهبة أدبية لا تخلو من إبداع وتجديد وتتميز برؤية فنية متطورة إذا ما قيس بالوضع الثقافي حينذاك وهو الأمر الذي جعله رائد القصة في الجزائر، وباعثها إلى الوجود، والداعي إليها في كل مناسبة، فقد كتب أكثر من مرة عن الفن القصصي في الصحف، وركز إلى الحوار بين الشخصيات القصصية وما يناسب كل شخصية من الحوار وفق مستواها وجنسها وسنها. . . فليس الرجل كالمرأة ولا الكبير كالصغير. . . ⁽¹¹⁸⁾.

إن "عادة أم القرى" - التي تقع بين القصة والرواية هي أول عمل قصصي له وتتجلى فيها موهبته الأدبية وقدرته الفنية في تصوير فتاة تعيش بين عواطفها وبين طاعة والدها

المحتكم إلى التقاليد فيختل توازنها، و تنهار، و تكون نهايتها وهذا العمل الأدبي من أنجح أعماله القصصية.

وإذا ما احتكنا إلى المفهوم السائد في عصره، وتحررنا منه قليلا في تحديده للقصة الفنية، فإننا نعتبر أعمال حوحو من القصص القصيرة مثل زروق وسيدي الحاج وثرى الحرب وسي زعور وعائشة وخولة. . .

ومما يلاحظه الدارسون على قصص حوحو شيوع التقرير في سرده، والإفصاح عن آراء الكاتب فمثلا في الصفحة 46 من "عادة أم القرى" -وهي أنجح قصصه- تعبير عن آراء الكاتب بأسلوب تقريرية⁽¹¹⁹⁾. وكذلك عدم الإقناع، ففي قصته (جريمة حماة) لا يذكر السبب الذي جعل هذه الحماة تسعى إلى طلاق ابنتها التي هي راضية بعيشتها مع زوجها، و لم تشك منه إطلاقا. و هي أحداث يسردها صاحبه (الزوج) مبتدئا قوله: "أقدمت حماتي المجرمة على أفضع جريمة"⁽¹²⁰⁾ ونضع علامة استفهام أمام (حماتي المجرمة) لأننا لا ندري السبب، ومنه لا نتعاطف مع هذا الزوج الشاكي.

وقريبا من هذه القصة تأتي قصة (فتاة أحلامي) مثلا واضحا في عدم الإقناع، فقد حدثها في السينما وفي الطريق، وحمل لها الطرود، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يعرفها حتى يصل إلى الجامعة، فيدرك أنها (بولوني الناطرة)⁽¹²¹⁾. ومما يزيد في ضعفها الفني مقدمتها الطويلة التي تصلح أن تكون مقالا عن حياة الجامعيين العابثين، تتفصل عن بقية الأجزاء التي تبدأ منها القصة هكذا (قصدت ذات مساء إحدى دور الصور المتحركة. . .)⁽¹²²⁾

و قصة (سي زعور) يمكن تجزئتها إلى قصتين، فالجزء الأول ينتهي بطردسي زعور من المدرسة، والثانية تنتهي بثرائه من الاختلاس. فالجزء الأول يعالج جشع المديرين واستغلالهم، ويعالج الجزء الثاني سرقات السواب⁽¹²³⁾.

ومن الضعف الفني في قصص حوحو التصريح والمباشرة، فقد يصرح بآرائه واعظا في بداية القصة أو في نهايتها، وفي مقدمة قصة (عائشة) يخصص صفحتين للحديث عن النساء الجزائريات، وأوضاعهن الاجتماعية التي تقل عن درجة الحيوان⁽¹²⁴⁾.

ويصرح في مقدمة قصة (الفقراء) بأنه تأثر بالبؤساء ليفكتور هيجو، فجاءته هذه الخاطرة التي أقدمها للأغنياء، وأنا واثق من أنهم لن يتخذوا منها وعظة ولا عبرة،

وانىّ لنفوسهم أن تتعظ أو تعتبر، وقد أفقدتها الشهوات الجائعة السمع والبصر⁽¹²⁵⁾.

لو حذف حوحو هذه التقريرات والتصريحات لكان أفضل لقصصه من الناحية الفنية، ولكن يبدو أنه كان يقصد إلى هذا الأسلوب قصداً. وقد دعا إلى "أدب القصة الذي نحن في أشد الحاجة إليه للنهوض بالأدب من جهة، والتقويم الخلقي من جهة أخرى" ⁽¹²⁶⁾. وقد شاعت الفكرة الأخلاقية والموعظة الحسنة في الأدب العربي، وكان مرغوباً فيها في الزمن السابق، يتسابق إليها الكتاب والمبدعون.

يكاد أدبه يكون تصويراً للواقع المعيش، فقيراً من الناحية الفنية، وقد قال في كلمته إلى القراء ما يلي: لم ألجأ إلى الخيال أعرف من منهل الزاخر، وأحلق في أجوائه الرحبة، وإنما توجهت إلى الحياة، فاننزع من صميمها هذه الوقائع التي عرفت بعض أبطالها، وعشت معهم واستمعت إلى أحاديثهم⁽¹²⁷⁾. نقلها على لسان بعض أصدقائها مثل قصة صاحبة الوحي، والقبلة المشؤومة وجريمة حماة وثرى الحرب. . .

3-3- خصائص أسلوب حوحو

يتميز حوحو بالإطلاع الواسع والثقافة المتنوعة، وهذا ما يستنتج من تصديره لبعض أعماله فهو يصدرها بأية قرآنية (الفقراء)، أو ببيت شعري (ثرى الحرب)، أو بقول أحد الكتاب (يحي الضيف)، كما صدر مجموعة (نماذج بشرية) بقول للابروبير، وقصة (غادة أم القرى) بقول لأندريه جيد. وصرح في مقدمة (الفقراء) بأنه تأثر بفكتور هيجو، وأعلن بأنه اقتبس من الفرنسية قصة (سي زعرور)، وتأثر تأثراً شديداً بكتاب الطبايع (LES CARACTERES) للابروبير فاستوحى منه مجموعته (نماذج بشرية). يقوم حوحو بتضمين أعماله أمثالا عربية مشهورة مثل "كأنه علم في رأسه نار" ⁽¹²⁸⁾ و"عوضه بدل درهمه ديناراً" ⁽¹²⁹⁾. أو أقوالاً عامية دارجة مثل "الدعوة مطينة بالولاد" ⁽¹³⁰⁾، و"المجانين في راحة" ⁽¹³¹⁾ و"قداش انبابور غرق لك؟" ⁽¹³²⁾.

ويبدو أنه متأثر جداً بالمظاهر الرومانتيكية مثل "الطهر والقداسة والجلال الإلهي والخمر المعنقة وعالم الروح والحب المقدس والصوت الملائكي" كما في قوله عن المرأة: "إن التي أحدثك عنها ملاك من الملائكة لا تمت إلى أهل الأرض بصلة" ⁽¹³³⁾.

هذه الرومانتيكية المثالية جعلت شخصيات قصصه راضية مستسلمة، لا تصارع الواقع ولا تنثور عليه، فيكون مصيرها الفشل والانطواء، كما يتميز أسلوب حوحو بالتهكم والسخرية والرسم الكاريكاتوري للشخصيات التي يكتب عنها، مطبوعاً بالصدق

والخفة والدعابة، مستخدماً ألفاظاً بسيطة وجملًا قصيرة ومعاني واضحة لا تعقيد فيها، ولا تعب في فهمها، تستهوي القارئ فيقبل على قراءة أعماله بشوق. قال في قصة فتاة أحلامي⁽¹³⁴⁾. جميع فتيات المدينة الجميلات منهن والذميمة أضربن عن مغارلتي، وأبرمن اتفاقاً بذلك "هذا موقف ساخر من شاب يقف في طريق الفتيات ينتظر مغارلتهم له، ولا واحدة تأبه به كأنه بضاعة كاسدة.

ولا يستطيع القارئ أن يمنع نفسه من الضحك على حمار يستعمل ساعة في رجله قال "ثم ألقى نظرة خاطفة على ساعته الرجولية"⁽¹³⁵⁾. واستمع إليه وهو يعبر عن مفارقات عجيبة في جمل قصيرة كقوله: "بلغت جثته وزن الفيل وبلغت روحه وزن الريشة"⁽¹³⁶⁾ وقوله: "غلا ثمنه، وخف وزنه"⁽¹³⁷⁾. وقوله: "دخل عليه ببطنه المنتفخة، وسمة الغضب تعلق على وجهه"⁽¹³⁸⁾. فما تحدث حوحو عن شخصية يمقتها إلا وصفها بانفخ البطن، وقد صرح بهذا على لسان صديقه الشاعر قائلاً: "يكره ذوي الأجسام الضخمة، وكثيراً ما نجده يترنم بالشعر الذي قيل في هجوه الضخام"⁽¹³⁹⁾.

يستخدم حوحو لفظ (سيدي أو سي) للتهكم من الأشخاص الذين يسخر منهم مثل (سيدي الحاج) و(سي زعرور) و(سي شعبان) وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى وجد شعبان نفسه سي شعبان⁽¹⁴⁰⁾.

حوحو مولع بالعين النجلاء لكل فتاة وصفها، وبضخامة البطن لكل شخصية نقدها. وبنحول الجسم لكل إنسان أعجبه -وهو نحيل الجسم، ضعيف البنية- وما فتئ يعلن موقفه الإصلاحية من كل القضايا التي عرض لها، معبراً عن القيم الأخلاقية والإنسانية، وعلى الرغم من كل ذلك يبقى حوحو الأديب الجريء، والناقد الساخر، والمبدع المجدد الذي تصدر طليعة الذين رفعوا راية الحرف العربي بكل إيمان وإخلاص.

الهوامش

- 108- سعيد الأخضر سلام: أثر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى الحركة الأدبية فى الجزائر, رسالة ماجستير - مخطوط- جامعة عين شمس, كلية البنات, قسم اللغة العربية, القاهرة 1979, ص 350-355.
- 109- عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربى المعاصر فى الجزائر, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر, 1971, ص 147.
- 110- عبد الله خليفة الركيبي: تطور النثر الجزائرى الحديث, الدار العربية للكتاب ليبيا, تونس, 1978, ص 167.
- 111- عبد الله خليفة الركيبي: تطور القصة الجزائرية القصيرة, الدار العربية للكتاب ليبيا, تونس, ص 3, 1977, ص 55.
- 112- حوحو: الشخصيات المرتجلة (نماذج بشرية), ص 75.
- 113- عبد الوهاب منصور: مع حمار الحكيم, البصائر, عدد 232, بتاريخ 15 جويلية 1952
- 114- نفسه .
- 115- سعيد الأخضر سلام: مرجع سابق, ص 360.
- 116- عبد الرحمن شيبان, مقال أين حمار الحكيم؟, البصائر, عدد 87 بتاريخ 18 جويلية, 1949.
- 117- عبد الله بن حلي, القصة العربية الحديثة فى الشمال الإفريقى -مخطوط - رسالة ماجستير جامعة عين الشمس, كلية الآداب, القاهرة 1976, ص 167.
- 118- حوحو, استنطاق الشخصيات فى الأدب القصصى, البصائر, عدد 66 بتاريخ 7 فيفري 1949.
- 119- حوحو: غادة أم القرى, 46. وهو تصريح بآرائه مباشرة
- 120- حوحو: جريمة حماة, (صاحبة الوحي و قصص أخرى) ص 69.
- 121- حوحو: فتاة أحلامى (صاحبة الوحي و قصص أخرى) ص 35.
- 122- نفسه , ص 33.
- 123- حوحو: سي زعرور (نماذج بشرية) , ص 115 - 124 .
- 124- حوحو: عائشة (نماذج بشرية), ص 21 , 22 .

- 125- حوحو: الفقراء (صاحبة الوحي و قصص أخرى) ص 72.
- 126- حوحو: استنطاق الشخصيات في الازدب القصصي البصائر, عدد 66 بتايخ 7 فيفري 1949
- 127- حوحو: الى الغراء (صاحبة الوحي و قصص أخرى) ص 3.
- 128- حوحو: الأستاذ (نماذج بشرية) ,
- 129- حوحو: سي زعرور (نماذج بشرية) , ص 122.
- 130- حوحو : العم نتيش (نماذج بشرية) , ص 45.
- 131- حوحو: مع حمار الحكيم, مرجع سابق, ص68 يقال في الأوساط الشعبية الجزائرية "أهل العقول في راحة" والظاهر أن حوحو قلب التركيب, فقال: المجانين في راحة. أو هذه المقولة كانت متداولة في عصره وهو أمر بعيد.
- 132- حوحو: رجل من الناس (نماذج بشرية) مرجع سابق ص61. هذا مثل عامي, يصاغ كالأتي: كم باخرة غرقك؟ يقال للذي يبالغ في التفكير ويشطح بخياله فيبتعد عن محدثه ولا يسمعه, فيخاطبه معاتبا: قداش أنبا بور رغرق لك.
- 133- حوحو: صاحبة الوحي وقصص أخرى, مرجع سابق ص13.
- 134- نفسـه ص32.
- 135- حوحو: مع حمار الحكيم ص17.
- 136- حوحو: يحي الضيف (نماذج بشرية) ص112.
- 137- حوحو: العم نتيش (نماذج بشرية) ص46.
- 138- حوحو: سي زعرور (نماذج بشرية) ص115.
- 139- حوحو: صديقي الشاعر (صاحبة الوحي وقصص أخرى) ص80.
- 140- حوحو: ثري الحرب (صاحبة الوحي وقصص أخرى) ص42.